الحزن
الذي أصبح عنقودا

بقلم الدكتور محمد وضاح الناشف

خرج اياد منسلاً من الباب الخلفي للمدرج . شعر ان المحاضرة سخيفة بل سفيهة اذا ما قورنت بسابقاتها فخرج . ولقد كان يقبل على محاضرات الطب الشرعي بانجذاب شديد . كانت سلسلة المحاضرات الاولى حول القتل والانتحار ذات جاذبية لاياد يقبل عليها بقلبه وبروحه ، وفي نهاية كل محاضرة تقريبا كانت لديه طريقة لتضليل الطبيب الشرعي . وفي أكثر من مرة عرض طرائقه هذه على الاستاذ الذي كان يعترف ويقول نعم ، لو فعل المجرم ذلك لاصبح كشف القتل مستحيلا.

باندفاع التحري الهاوي كان يقبل على تلك المحاضرات ، واليوم لديه طرائق عديدة تجعل منه مجرما مخيفا لو اختار طريق الاجرام ، أو قل نصائح سديدة قد يسديها لنفسه أو لاحد أصدقائه الخلص في يوم ما في حالة يصبح فيها القتل مفيدا !

أما محاضرة اليوم التي شعر بملل مقيت منها ، فهي الاولى في سلسلة محاضرات عن الضلال الجنسي ، وهي لم تكن في رأيه ـ من حيث الموضوع ـ على نفس التشويق والجاذبية التي تمتعت بها محاضرات القتل والانتحار . « بهيمية وحيونة » ، دمدم في صدره وهو ينسل من المدرج ، وتمنى لو ان الانسان يولد بطريقة تختلف عن الطريقة التي يولد بها الحمار .

لم يكن سخف الموضوع ـ موضوع المحاضرات الجديد ـ هو الشيء الوحيد الذي جعله يخرج من المدرج قبل نهاية المحاضرة ، بل ان الشيء الاكثر الحاحا هو شعوره بأن الفكرة قد نضجت في رأسه ، نضجت تماما ، والطريقة واضحة في ذهنه ، واضحة تماما .

سار في الممر وهو يشعر انه في حالة مخاض ، الفكرة والطريقة في رأسه على وشك أن تولدا الآن . شعر ان رأسه يتضخم ، وبعد دقائق ستولد الفكرة ويعود الى حجمه الطبيعي. رأى ان احدى غرف الايضاح فارغة ومظلمة وليس بها من أحد فدخلها وأغلق الباب . جلس على كرسي صغير في الظلام الدامس . دقائق.. وشعر ان الفكرة قد ولدت فعلا . نعم ، انها لكذلك... وداخله شعور عميق بالارتياح ، تماما كما تفعل الماخض بعد ولادتها . وكما تأخذ الأم تتفحص ولدها بعد مخاضها العسير لتطمئن عليه ، أخذ اياد يتفحص فكرته ويطمئن على صحتها وجدواها . وحتى لا تزدحم الصور في رأسه قرر أن يعيد التفكير في الموضوع بالترتيب ومن البداية :

باختصار :

المطلوب طريقة لقتل انسان عديم الفائدة .

والغاية ادخال السرور الى قلب شخص عزيز والتخلص من شخص يتعير به هو نفسه .

والطريقة اغراء هذا الشخص بتناول خمسين حبة من حبوب الفاردينال المنوّمة .

كان لاياد شقيق توأم يصغره بعدة ساعات ، وهو يشبهه في كل شيء (توأم حقيقي) الا انه شديد التخلف العقلي . فبعد مخاض عسير وضعت الوالدة التوأم الاول وكان بصحة جيدة ، ثم بقي الثاني فترة أطول مما هو مستحب ، تعرض خلالها لنقص الاوكسيجين ، الامر الذي أدى الى بلاهته .

بدأت الصور تتلاحق في ذاكرة اياد بانتظام وبوضوح وهو جالس في غرفته المظلمة ، تماما كما تتلاحق الصور في دور العرض السينمائية :

ـ صورة والدته التي يكاد يحبها حتى العبادة وهي ماخض ، ورأى نفسه ولدا بارا يولد بسهولة ويسر ، ثم تمضي ساعات كئيبة مخيفة تشرف فيها الوالدة على الموت أكثر من مرة ، ويحف بها الاطباء والقابلات ، وأخيرا يولد الابن الشبقي العاق لوالدته بعد أن أذاقها الطعم المر ، وضحك في نفسه ساخرا : « أول الرقص حنجلة » ، فالعقوق الحقيقي آت على الطريق .

ـ ثم تأتي الصورة الثانية : والدته المسكينة وقد أصابها احباط شديد بسبب التوأم الذي تأخر في نطقه وفي سيره وفي نظافته وهي تدعو على نفسها ، بالموت لترتاح منه .

ـ ثم صورة والدته وهي تخبىء توأمها المعتوه في غرفة معزولة حتى لا يراه الخاطبون الذين قدموا لخطبة أخته . ففي مدينته ، يعتقد عامة الناس ان الولد قد يخوّل ، ولذلك يعزفون عن خطبة البنت التي لها أخ

ذو عاهة أو معتوه . ولكن المعتوه التعيس يهرب من سجنه ويفاجىء والدته في غرفة الضيوف مع الخاطبين، يفاجئها ويفاجئهم بابتسامة غبية صفراء ليست ذات مغزى . وينصرف الخاطبون عازفين .

نعم . نعم . من تلك اللحظة بدأ اياد يتعير من أخيه التوأم وصار هو الآخر يحاول حجبه عن رؤية زملائه ، خاصة عن من يتعرف عليهم حديثا .

ـ ثم تأتي صورة أخرى لوالدته وهي تنظف التوأم الشاب . انها « تحفضه » وتنظفه بنفسها منذ أكثر من عشرين عاما . كم ألف مرة دخل غرفة الجلوس وشمّ فيها الروائح الكريهة ، فيعلم من غير أن يسأل ان توأمه المتعب كان « يتحفض » قبل قليل . بل مهما حاولت الوالدة المسكينة أن تنظف من هذا المخلوق المعتوه فانه لا يلبث أن يوسخ ملابسه وينشر الروائح المقززة أينما حلّ .

ـ وصورة أخرى للوالدة وهي تهنىء اياد بتفوقه وانتسابه الى كلية الطب ثم تتنهد : لو ان الله قسم بينكما العقل بالتساوي ولكنه ـ جلّت حكمته ـ يفعل ما يريد . قالتها له كما لو انه سرق من العقل والفطنة حصته وحصة أخيه . بل لقد شعر باثم من قام بهذه السرقة فعلا .

ثم توقف اياد عن تتابع الصور والذكريات بعد أن أشبع نفسه ـ بما فيه الكفاية ـ باحتقار أخيه ، وقال في نفسه : الانسان = حيوان عاقل

انسان معتوه = حيوان

وضحك ضحكة كلها أسى : انها معادلة من الدرجة الاولى يستطيع أن يحلها طالب في المرحلة الاعدادية . لدينا المعادلة الاولى التي بحذف العقل من طرفيها تنتج المعادلة الثانية . وشعر بسعادة غامرة لهذه النتيجة . وكرر في نفسه : ليس من الحكمة بمكان أن نشعر بالذنب اذا قتلنا ضفدعا أو فأرا أو ... معتوها فكلها حيوانات . واذا كان القانون من الغباء بحيث لم يفرق بين انسان معتوه وانسان كامل الاهلية فان اياد الذكي يستطيع أن يتغلغل الى جوهر الحقيقة ويصنف الكائنات الحية تصنيفا صحيحا .

ثم توقف اياد ثانية عن تلك المناقشة وعاد الى الموضوع يبحثه من زاويته : هذا الشقيق خطأ جر خلفه أخطاء عديدة . سمته أمه أياسا تيمنا بالقاضي أياس المشهور بذكائه وفطنته ، وكان هو أجدر بهذا الاسم منه ، وهذا أحد الاخطاء الكثيرة التي سببها هذا المعتوه في هذا العالم .

منذ أن كان صغيرا بل وصغيرا جدا ، كانت والدته تعهد اليه برعاية شقيقه التوأم . وتمرّ عشرون سنة ونيف ولا تزال الوالدة تعهد اليه بهذا الامر كلما أرادت الخروج من البيت لزيارة أو لامر كأنما هي ضريبة يدفعها . لمن ؟ ولماذا ؟ لا يدري ! ولكن السؤال المفيد هو : هل سيظل يدفعها الى الابد ؟.. انه بكل تأكيد لا يرغب في ذلك .

ليس رعاية هذه الكتلة الحية كل ما يزعجه . بل ان عليه أن يلتقي ـ غصبا عنه ـ بهذا الوجه الغبي كل يوم صباحا ومساء ، وأن يستقبل ـ مهما كانت حالته النفسية ومهما كانت حالة الطقس ـ ابتسامات أخيه الصفراء عديمة المعنى . لقد كره الابتسام لهذا السبب ، فهو نفسه لم يبتسم منذ سنوات . لقد سرق توأمه منه ابتسامته .

توقف اياد عن التفكير في ذنوب أخيه وشدة اضراره به وبأمه وأخته : « لماذا أتعب نفسي بتذكر كل هذا ؟ انه تافه ومؤذ بما لا يحتاج لاثبات ، وحاجة هذا الابله الى الموت لا تقل عن حاجتي أنا الى موته » .

منذ أن كان طفلا ـ وعلى قدر ما تستطيع الذاكرة أن تسعفه ـ وهو يتمنى لو انه لم يرزق بهذا الاخ . وليس لذلك من تفسير الا انه كان يرغب أن يموت منذ زمن بعيد . ولكن الآن فقط اتضحت الكلمات في رأسه « أريده أن يموت هكذا وبصراحة » .

الخطة بسيطة وواضحة ، سيغري أخاه بشرب كمية كبيرة من حبوب الفاردينال المنومة . يكفي أن يضعها أمامه ويقول له : « نح » ! حتى يلتهمها في ثوان وينتهي الامر . « معتوه ظنها حلوى » ! هكذا سيقول الناس . ولكن ماذا عن أمه الغالية التي يكاد يحبها حتى العبادة ، هلّ ستحزن لموته ؟ بالطبع نعم . كل شيء موجود ضمن الخطة . تماما كما حزنت على موت الهر في العام الماضي ، ولن تلبث أن تشعر بانزياح الثقل الضخم عن صدرها وترتاح من الفكّ والتحفيض .

عاد اياد الى البيت والفكرة واضحة في رأسه ، تماما كما لو انها مكتوبة ضمن رأسه بحروف من أضواء النيون . خطة محكمة لا يسيلّ منها الماء . فالى العمل .

فتح الباب فاستقبله أخوه المعتوه بابتسامته الصفراء المعتادة ، ولكن على عكس كل مرة وجد ان ابتسامته ليست عديمة المغزى كالسابق . بل انها مملوءة بالحب وبانتظار الاخ القوي المعين . ولكنه تجاهلّ هذا الاحساس لانه لم يكن موجودا ضمن الخطة .

ولم يكد يخلع نعليه حتى أسرع أياس فأتى لاخيه بـ « الشحاطة » ليلبسها . ورغم انه يفعل ذلك دائما ، الا انه أحسّ اليوم ان أخاه يفعل ذلك عن حب . ولكنه تجاهل هذا الاحساس أيضا لانه لم يكن موجودا في الخطة .

قالت الوالدة : « الحمد لله انك جئت ، سأدع اياسا في عهدتك ريثما أزور أم سليم . لن أتأخر كثيرا » . وبالرغم من ان والدته اعتادت دوما أن تترك اياسا في عهدته وتقول نفس الكلمات ، الا انه أحسّ هذه المرة انها تعني ما تقول ، وانها تسأله بكلّ جد أن

يكون حافظا للعهدة التي عهدت بها اليه . ولكنه تجاهل هذا الشعور أيضا ، لانه لم يكن موجودا ضمن الخطة .

لم تكد أمه تخرج حتى قال في نفسه : « الوقت مناسب ، الى الخطة » . وتجاهل ان خطته قد خرمت سلفا أكثر من مرة .

نادى أخاه ووضع أمامه حبوب الفاردينال وقال : « نح » ! توقف التوأم المبتسم عن الابتسام لانه لم يعتد كرم الضيافة من أخيه . فهذه أول مرة يتكرم فيها الاخ على أخيه بهذه الـ « نح » . توقف لثوان ثم ابتسم من جديد وشرع يزدرد الحبوب بنهـــم والشقيق المخطط يراقبه . دقائق ... وسقط على الارض .

دخل اياد ــ حسب الخطة ــ الى غرفته . جلس خلف الطاولة وتظاهر بالقراءة بانتظار أن تعود والدتـه وتكتشف هي الحادث الذي وقـــع قضاء وقدرا ... ومرّت الدقائق طويلة طويلة ... وعادت أمه ــ حسب الخطة ــ فاكتشفت التوأم الميت وأخذت تبكي . ركض نحوها وسأل ــ حسب الخطة ــ ماذا جرى ؟ نظر الى الارض ، ركع بجوار أخيه ، اكتشف زجاجة الفاردينال بجانبه ثم صاح ــ حسب الخطة ــ يا الهي ! لقد فعلها ، لقد ابتلع الحبوب المنومة كلها ، حصل ما كنت أخشاه ، منذ أن ابتلع علبة الاسبيرين في العام الماضي وأنا أخشى أن يحصل مثل هذا . ترك والدته الذاهلة ودخل الـى المطبخ . قشّر بصلة وأخذ يفرمها ويشمها حتى تدمـع عيناه . ورغم انه شعر بأنه قادر على البكاء لوحده الا انه فعل ذلك لانها جزء من الخطة . عاد الى أمه ، وجدها تبكي بحرقة ، جاثية قرب ولـــدها المتوفي ، لم يتأثر لبكاء والدته التي يحبها أعظم الحب ، فبكاؤها محسوب ضمن الخطة .

عاد الى غرفتـه واضطجع على سريره منبطحا على بطنه . بعد قليل ، وصل الاقارب والجيران وكل شيء يسير ضمن الخطة .

الساعة الآن الواحدة ليلا . كل فرد مـــن أفراد الاسرة هاجع في غرفته ، وربما ناموا جميعا . الخطـة نفذت بحذافيرها ولـــن يتهمه أحد . ولكنه لا يشعـر بالانتصار كما كان يتوقع . شعر بتعب شديد وبميل الى النوم . لقد قام بعمل ضخم وعليه أن يرتاح . وما كاد يغلق جفنيه حتى شعر بخوف شديد : ماذا لو ان أخاه فاجأه في منامه وسأله وهو يبتسم كعادته : « بأي ذنب قتل ؟! » . أطار الخوف النوم من عينيه : هذا الخاطر لم يكن موجودا ضمن الخطة . فتح الشباك ورأى الدالية محملة بعناقيد الحصرم ذات الحبـات الخضر تهدهدها نسائم نيسان العليلة ، بدت له كعنـــاقيد من حبات الفاردينال . ضحك في نفسه لهـذا الخاطر الماكبثي . « خواطر ما بعد العمل العظيم » قال في نفســـه وهو يحدق في العناقيد .

حلب

صدر حديثـا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعـة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعـة السابعـة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثـة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثـة)

قصص سهيل ادريس

في جزئيـن :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب